

News of Ibn Qutaybah – a study in the cultural pattern

Dr. Khalid Sakban Hassan

University of Basra / Center for Basra and Arab Gulf Studies



Khaled.ALABadi@uobasrah.edu.iq



<https://orcid.org/0000-0002-2100-9237>



<https://doi.org/10.32792/tqartj.v2i43.480>

Received 6/6/2023, Accepted 5/8/2023 , Published 30/9/2023.

Abstract

Cultural reading seeks to re-read literary texts in light of their historical and cultural contexts, as the cultural pattern is a social, religious, moral, aesthetic, etc. position imposed by the social situation at a certain moment of its development, which the author and his audience implicitly accept. The texts include in their structure implicit and deceptive patterns capable of evasion and avoidance, and they cannot be revealed or revealed their latent meanings in the literary achievement except by achieving a holistic conception of the nature of the cultural structures of society, and realizing the reality of the dominance of those established patterns on the idea of ideology and the concept of the possible in the conflict of different social forces, which is what This study tends to read the cultural patterns in the book (Eyes of the News) by Ibn Qutaybah .

Keywords: Ibn Qutaybah, the pattern, ideology, cultural structures.



ملخص البحث

إن القراءة الثقافية تسعى إلى إعادة قراءة النصوص الأدبية في ضوء سياقاتها التاريخية والثقافية ، ذلك أن النسق الثقافي هو مواضع اجتماعية ، دينية ، أخلاقية ، استيقية ،... تفرضها ، في لحظة معينة من تطورها ، الوضعية الاجتماعية ، والتي يقبلها ضمناً المؤلف وجمهوره حيث تتضمن النصوص في مبنائها أنساقاً مضرة ومخالطة قادرة على المراوغة والتمنّع، ولا يمكن كشفها أو كشف دلالاتها النامية في المنجز الأدبي إلا بإنجاز تصوّر كليّ حول طبيعة البنى الثقافية للمجتمع، وإدراك حقيقة هيمنة تلك الأنساق المؤسسة على فكرة الأيديولوجيا ومفهوم المحتمل في صراع القوى الاجتماعية المختلفة ، وذلك ما تتجه إليه هذه الدراسة عبر قراءة للأنساق الثقافية في كتاب (عيون الأخبار) لابن قتيبة .

الكلمات المفتاحية : ابن قتيبة، النسق ، الأيديولوجيا ، البنى الثقافية

التمهيد

مفهوم الخبر

لا نجد في تراثنا القديم تحديداً واضحاً لمفهوم (الخبر) ؛ فهو يرد في سياق الحديث عن الأجناس النثرية السائدة آنذاك ، كالنادرة ، والحكاية ، والسيرة ، والقصاص .

ذكر الجاحظ الخبر في سياق حديثه عن الكتاب بقوله : ((متى خرج من أي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ومتى خرج من خبر صار إلى الشعر، ومن الشعر إلى النوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس السداد))^(١) ، وتحدث عن الخبر بوصفه قولاً مروياً حين ذكر أقوالاً ثلاثة للحسن بن علي (ع) ولعلي بن الحسين بن علي (ع) ولمحمد بن علي بن الحسين (ع) فعقّب عليها قائلاً : ((وذكر هذه الثلاثة الأخبار إبراهيم بن داحة عن محمد بن عمير))^(٢).

وتتسع معاني الخبر عند الجاحظ لتدل على معارف مختلفة , فالناس قد ((جعلوا من ذلك سبيل المعرفة بصدق الأخبار - كالعلم بالأمصار القائمة , والأيام الماضية , كيدر وأحد والخندق , وغير ذلك من الوقائع والأيام , وكالعلم بفرغانة والأندلس والصين والحبشة , وغير ذلك من القرى والأمصار - سبيل الاكتساب والاختيار))^(٣) . ويبدو أن هذه المعارف (التاريخ والجغرافية) أدخلها الجاحظ ضمن الأخبار لأنها تركز في معلوماتها المتنوعة على صورة الخبر , بل أنه - بحسب الجاحظ - وثيق الصلة بمعارف العرب منذ الجاهلية , وهي معارف تمثلت بـ ((قيافة الأثر وقيافة الطير ومن العلم بالأنواء وبالخيل وبالأنساب وبالأخبار وتكلف قول الأشعار))^(٤).

وما يعيننا في هذه الدراسة - من معاني الخبر - هو ما يتعلق بدائرة الأدب التي يمكن أن نجد القدماء يعدّون الخبر فيها أحد أجناس الأدب , إذ يقول الجاحظ : ((وقد جمعت في كتابي هذا ما جاء في الحجاب من خبر وشعر , ومعاتبة وعذر , وتصريح وتعريض))^(٥)؛ وهو في هذا القول يؤكد ((أن الخبر والشعر جنسان من أجناس الأدب , والمعاتبة والعذر غرضان , والتصريح والتعريض أسلوبان . وإذا كان الشعر محددًا معرفًا بالوزن والقافية على الأقل فإن الخبر يضمّ سائر أضرب الكلام التي لا تتوافر على تلك الشروط))^(٦).

لذلك لا نستغرب من كثرة المؤلفات التي اتخذت من الأخبار عنواناً لها من قبيل (أخبار اليمن) لعبيد بن شربة الجرهمي (٦٧هـ) و (الأخبار الطوال) لأبي حنيفة (١٥٠هـ) و (أخبار مكة) للأزرقي (٢٥٠هـ) و (جمهرة نسب قریش وأخبارها) للزبير بن بكار (٢٥٦هـ) و (عيون الأخبار) لابن قتيبة (٢٧٦هـ) و (أخبار النحويين البصريين) لأبي سعيد السيرافي (٣٦٨هـ) , وهي مؤلفات حمل الخطاب فيها معاني الحديث والحكاية والخبر , وإن كان الخبر يستشف منه معنى القصص.

ومما تقدم , يتراوح مفهوم الخبر عند القدماء بين معان عدة يصعب معها وضع حدّ له , فقد اختلفوا في ((تحديد الخبر فقليل لا يحدّ لعصره , وقيل لأنه ضروري , وقيل يحدّ واختلفوا في تحديده))^(٧).

أما عند المعاصرين , فقد اشتهر الأمر على بعض الباحثين فخلطوا بين الخبر وأجناس أخرى من النثر , فهو تارة رديف للخبر^(٨) , وأخرى مختلطاً بمفاهيم كلّ من الحكاية والسمر والنادرة , أو ما سمّي بالقصص الإخباري الذي تمثل بـ ((الحكايات القصيرة , والأسمار الكثيرة

، والنوادر الظريفة ، والأخبار المشتتة هنا وهناك ، لا يجمعها كتاب واحد من الأصول ، لأنها لم تدون في مكان واحد معين ، ولم يكتبها كاتب واحد معروف لغرض من الأغراض الأدبية . وإنما هي روايات مختلفة الألوان ، متشعبة الأهداف ، متعددة الأغراض ، جمالها في ظرفها ، وخفة روح روايتها ، وأدبها في رشاقة أسلوبها ، ونصاعة لغتها ((^٩). بل أن هناك من الباحثين من أخرج الخبر عن دائرة الأدب (^{١٠}) ، غير أننا نجد محاولات بذلت لتقديم تعريف للخبر ، ووضع حدود فاصلة بينه وبين أنواع أخرى من النثر بوصفه أصغر وحدة حكاية في مجموعة من أنواع نثرية تضمه إلى جانب الحكاية والقصة والسير ، وهي أنواع تقترب من حيث طبيعتها وثباتها من الأجناس ، وتتحقق عبر مبدئين : الأول تراكمي ، تتدرج فيه الأحداث من الخبر إلى الحكاية التي تتراكم لتحقق القصة ومن تراكم مجموع القصص تكون السيرة ، وهذا المبدأ يتأسس على المبدأ الثاني ، وهو المبدأ التراكمي الذي يمثل قاعدة تكامل العوالم الخبرية (الخبر – الحكاية – القصة – السيرة) ، ويتحقق هذا المبدأ من خلال ارتباط النوعين الأول والثاني على أساس (الحدث) ، فيما يتصل النوعان الآخران بـ (الشخصية) (^{١١}).

ويرى سعيد جبار أن ((الخبر على عكس الأنواع السردية الأخرى المركبة ينمو أفقياً فقط، في حين تنمو الأنواع الأخرى أفقياً وعمودياً. وتتمثل بساطة الخبر في هذا الانتقال السريع بين الوظائف التي تربط البداية بالنهاية، في مساحة خطابية لا تتجاوز أحياناً السطرين أو الثلاثة. وهذا ما يجعل الحدث في الخبر بسيطاً، كما يجعله بؤرة الفعل السردية بصفة عامة. وبساطة الحدث ووحدته تنعكس على البنية الزمانية والفضائية التي لا تتجاوز هي الأخرى هذه البساطة، وبالتالي فبساطة النوع تنعكس على الثوابت الحكاية التي تدعم هذه البساطة وتؤكد لها)) (^{١٢}).

هذا التميز في خصوصية الخبر من حيث الشكل ووحدة الزمن والحدث ، وتفرد الفضاء أو غيابه في الكثير منها ، وندرة الشخصيات وقلتها ، وهيمنة الخطاب المسرود ، لا يمكن أن يكون قوانين صارمة تحكم صورة الخبر على مستوى الخطاب والبناء ، بل هي سمات تحضر في أغلب الأخبار ، تزيدنا فهما في إدراك الملامح الرئيسية لهذا النوع من الإبداع (^{١٣}).

نخلص مما تقدم إلى أن الخبر يتصف بخصائص مميزة حاول الباحثون أن يرصدوا ما تكشف لهم منها في هذا الفن التراثي ، وهي خصائص تحددت بعدم الامتداد في الزمن والمكان ، والتركيز على الحدث بدلاً من الشخصية ، والتزام ترتيب محدد في البنية السردية ، وبساطة الأسلوب... الخ .

لعلنا لا نأتي جديداً حين نتحدث عن جهود الناقد الكبير عبد الله الغذامي الذي طرح (النسق) بوصفه مفهوماً مركزياً في مشروعه النقدي . وعنده ، أنّ النسق تتحدد دلالاته وسماته عبر وظيفته التي يؤديها في النص ، وهي وظيفة تتحقق ((حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمّر ، ويكون المضمّر ناقضاً وناسخاً للظاهر . ويكون ذلك في نصّ واحد ، أو في ما هو في حكم النصّ الواحد . ويشترط في النصّ أن يكون جمالياً ، وأن يكون جماهيرياً))^(١٤).

يعدّ النسق الثقافي مفهوماً مركزياً في مجال النقد الثقافي ويعود تشكّله نتيجة حقلين معرفيين هما النقد الحديث والانتربولوجيا . والأنساق الثقافية هي ((قوانين/تشريعات أرضية من صنع الإنسان ، في مقابل التعاليم السماوية التي أنزلها الله تعالى في الأديان ، وضعها الإنسان لضبط نفسه ولتصريف أموره في الحياة وهي تعبر عن تصوّر الإنسان القديم لما ينبغي أن تكون عليه الحياة ، ودراسة هذه الأنساق فلسفياً ، سوف يفسر لنا العديد من إشكاليات الإنسان مع الطبيعة والدين والحياة وحتى مع نفسه ... ، والأنساق الثقافية قابلة للتطور شأنها شأن كل عناصر الحياة))^(١٥)

ان القراءة الثقافية تسعى إلى إعادة قراءة النصوص الأدبية في ضوء سياقاتها التاريخية والثقافية ، ذلك أن النسق الثقافي هو ((مواضعة (اجتماعية ، دينية ، أخلاقية ، استيقية ،...) تفرضها ، في لحظة معينة من تطورها ، الوضعية الاجتماعية ، والتي يقبلها ضمناً المؤلف وجمهوره))^(١٦) حيث تتضمن النصوص في مبنائها أنساقاً مضمرة ومخاتلة قادرة على المراوغة والتمنّع ، ولا يمكن كشفها أو كشف دلالاتها النامية في المنجز الأدبي إلا بإنجاز تصوّر كليّ حول طبيعة البنى الثقافية للمجتمع ، وإدراك حقيقة هيمنة تلك الأنساق المؤسسة على فكرة الأيديولوجيا ومفهوم المحتمل في صراع القوى الاجتماعية المختلفة ، وذلك ما تتجه إليه هذه الدراسة عبر قراءة للأنساق الثقافية في كتاب (عيون الأخبار) لابن قتيبة .

١- النسق الفكري

عندما نتأمل أخبار ابن قتيبة يتبن لنا بدرجة مناسبة من الوضوح الإطار السردى الذي تتحرك فيه ، هذا الإطار مثلّ الواسطة التي يستطيع بها المؤلف ممارسة عملية إقناع القارئ

بما يطرحه من عقائد وأفكار - تمثل مرجعية ثقافية متجذرة في ذهنية المؤلف - عبر
امكانيات عدة للترابط , يختار القارئ بعض خيوطها ويربطه بما سبق .

يمكن لنا أن نحدد اشتغال النسق الثقافي المضمرة في أخبار ابن قتيبة عبر رصد مظاهره
في نماذج تفي باشتراطات تحققه .

يورد ابن قتيبة - في باب (كتاب السلطان) ما ينبغي للحاكم من مقامٍ وسيرةٍ وسياسةٍ -
أخباراً عدة تكشف في نسقها المضمرة عقيدة المؤلف ونظراته إلى الحاكم في زمانه , ومن
نافلة القول إن الاختيار لم يكن بمعزل عن قصدية المؤلف الواضحة في دلالة هذه الأخبار
المنتقاة .

يقدم ابن قتيبة لمبدأ طاعة السلطان بنصّ طويل يحمل من الدلالات ما ينبأ عن الراسخ في
عقيدة المؤلف من واجب الطاعة للسلطان حتى لو كان جائراً فـ((مثلاً قليل مضار السلطان
في جنب منافعه مثل الغيث الذي هو سقيا الله وبركات السماء وحياة الأرض ومن عليها
))^(١٧).

هذه النصائح الي يسردها ابن قتيبة تمهد لما يأتي بعدها من أخبار وأقوال يُقرأ فيها محاولة
لترسيخ مفهوم الطاعة الواجبة للسلطان على رعيته ؛ ومن نماذج تلك الأخبار ما نصح به
أبو هريرة رجلاً من أهل العراق , إذ قال : ((يوشك أن يأتيك بُععان الشام فيأخذوا صدقتك
فإذا أتوك فتلقهم بها فإذا دخلوها فكن في أقاصيها وخلّ عنهم وعنهما , وإياك وأن تسبهم
فإنك إن سببتهم ذهب أجرك وأخذوا صدقتك وإن صبرت جاءتك في ميزانك يوم القيامة
))^(١٨) , وبذلك يقدم لنا ابن قتيبة خبراً يسند عقيدته في السلطان , بل يعرض أوضاعاً سردية
تمجد لمثل هؤلاء السلاطين الذين امتازوا بالقدره والحزم والشدة في أخذ الناس بما يفعلون
, فقد أورد خبراً يقول فيه : ((قدم قادم على معاوية بن أبي سفيان فقال له معاوية : هل من
مُعَرِّبة خبر ؟ قال نعم , نزلت بماء من مياه الأعراب فبينما أنا عليه إذ أورد إعرابي إبله فلما
شربت ضرب على جنوبها وقال عليك زياداً . فقلت له : ما أردت بهذا ؟ قال : هي سُدى ,
ما قام لي بها راعٍ مذ ولى زياد . فَسَرَّ ذلك معاوية وكتب به إلى زياد))^(١٩).

مثل هذه الأخبار تحقق مقاصدها على نحو ضمني , إذ يستخلص القارئ - انطلاقاً من
السياق الذي تنتزل فيه هذه الأخبار - رسائل المؤلف التي يريد عبرها تمجيد المضامين

التي ينحاز لها , وتوليد انفعالات ايجابية تجاه تلك المضامين حتى تكون موضع قبولٍ واستحسان عند المتلقي .

وعلى الرغم من أن ابن قتيبة أهدى كتابه إلى الوزير أبي الحسن عبد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل، وكان ذلك سببا في تقديم ابن قتيبة إلى المتوكل والاستعانة به في بعض الأعمال^(٢٠) , إلا أننا نجد هذا التمجيد للسلطان الأموي متمثلاً بأخبار عدة يسردها ابن قتيبة لرموز الأمويين , وهو أمر قد يثير المفارقة والاستغراب عند القارئ , لكن ذلك يتبدد حين نفهم أن المؤلف يتبنى خطأً فكرياً واضحاً يتمثل بتمجيد السلطان وتأييده في قمع الآخر المخالف لعقيدة المؤلف , ولا يهم بعد ذلك أن يكون أصحاب هذا الخط مختلفين في سياساتهم . وحينها نعلم الموجهات الفكرية والمرجعيات الثقافية المضمرة التي تحكمت في اختيار ورواية مثل هذه الأخبار .

يتحرك النسق الثقافي وفق محددات معينة تتمثل بالرصيد المعرفي والثقافي للمؤلف وللقارئ ؛ فالمؤلف تحيط به مرجعياته الثقافية بأطيافها المختلفة التي تشكلت عبر مسيرته في الحياة , وكذلك القارئ الذي يختزن في ذهنه رصيماً معرفياً تكوّن عبر قراءات عدة لصنوف من العلوم التي تمكنه من فتح شفرات النصوص واستكناه دلالاتها , ذلك ((أن معارف القارئ ومعلوماته وخبراته وكلّ ما يشكّل (موسوعته) تشكل العنصر الرئيس في تكوين المعنى وبنائه , وأن أفضل الطرق التي يكوّن بها القارئ المعنى تقوم على مبادراته واقتراحاته التي يتقدم بها , وبالتالي فلكي يبني المعنى ويكونه , يلزم أن يربط القارئ بين ما يقرؤه , وبين ما يعرفه بالفعل))^(٢١). على أنه يجب التنبيه على أن القارئ المقصود هنا هو القارئ الذي يتخذ من القراءة عملية بناء وتكوين للمعنى , وبذلك نميزه عن القارئ العادي الذي قد يشترك في المعرفة نفسها لكنه يختلف في معنى تلك المعرفة عن القارئ الأول .

وفي أخبار ابن قتيبة يمكن للقارئ أن يرصد حركة الأنساق الثقافية على وفق ما يتوافر له من معلومات عن المؤلف وعن العصر الذي أنتج فيه النص , فنحن لا يمكن أن نعزل اختيار ابن قتيبة لمجموعة أخباره وتصنيفها بأبوابها العشرة عن مرجعياته الثقافية بمكوناتها (العقيدية والفكرية والاجتماعية) ؛ فإذا كانت اللغة هي صورة الفكر , فقد عبر ابن قتيبة بلغة واضحة عن مؤلفه حين وصفه بأنه ((دالٌّ على معالي الأمور مرشد لكريم الأخلاق

زاجر عن الدناءة ناهٍ عن القبيح باعث على صواب التدبير وحسن التقدير ورفق السياسة وعمارَة الأرض وليس الطريق إلى الله واحداً ولا كلّ الخير مجتمعاً في تهجد الليل وسرد الصيام وعلم الحلال والحرام , بل الطرق إليه كثيرة وأبواب الخير واسعة وصلاح الدين بصلاح الزمان , وصلاح الزمان بصلاح السلطان , وصلاح السلطان بعد توفيق الله بالإرشاد وحسن التبصير ((^{٢٢}). وفي هذا النص كشف واضح للمنطلقات الفكرية لهذه الأخبار , وهي منطلقات لا تخرج عن حدود المرجعية الثقافية لابن قتيبة , فهذه الأخبار تتعدى مجرد كونها أخباراً إلى ترتيب مسائل تتعلق بالكون والحياة , وهي في ذلك تمثيل ثقافي لما تعتمدة الثقافة التي ينتمي إليها المؤلف .

يسرد ابن قتيبة أخباراً يتوخى من خلالها إثارة انفعالات القارئ , سلباً أو ايجاباً , تبعاً لل غاية التي يّراد تحقيقها . فقد نجد أخباراً تحمل مضامين تكتسب طابع التوجيه والارشاد , وهذه المضامين لا تتعدى كثيراً عما يريده ابن قتيبة من تعزيز القيم الاخلاقية , أو الاجتماعية , أو الدينية عند القارئ . فمن تلك الأخبار ما روي عن قيس بن زهير حين مرّ ببلاد غطفان ((فرأى ثروة وجماعات وعدداً فكره ذلك , فقال له الربيع بن زياد : إنه يسوءك ما يسرّ الناس ! فقال له : يا أخي إنك لا تدري , إنّ مع الثروة والنعمة التحاسد والتخاذل , وإن مع القلة التحاشد والتناصر))(^{٢٣}), وهنا قيمة اجتماعية تتمثل بما يحتاجه المجتمع من تعاضد وتكاتف لمواجهة تحديات الحياة . وعلى الرغم من أن شخصيات هذا الخبر هي شخصيات جاهلية لا تؤمن بما يؤمن به المؤلف من عقيدة إسلامية , إلا أن ابن قتيبة أراد تلك القيمة الاجتماعية التي تبعث على تناصر المجتمع في حالة العوز والحاجة , وهي قيمة يراها تندثر حين يصاب المجتمع بداء الغنى والثروة التي تثير حالات من الحسد والتباغض وتشل حركة المجتمع في النهوض في أوقات المحن , لتتركه خائفاً على ما يملكه من أموال , فيركن إلى التخاذل وقت الشدة .

ويتحرك هذا النسق الثقافي في أخبار ابن قتيبة كاشفاً عن الموجهات الفكرية والمرجعيات الثقافية المضمرّة التي تتحكم في اختيار هذه الأخبار ليطلع عليها القارئ ويستخلص الغايات المراد تحقيقها منها , كما يظهر في هذا النصّ الخبري : ((سمعت بعض أهل الأدب يقول : ما أشبه تأويل الرافضة للقرآن بتأويل رجل للشعر , فإنه قال يوماً : ما سمعت بأكذب من بني تميم ! زعموا أن قول القائل :

بيت , زرارة مُحْتَبِ بفنائه ومُجاشعُ وأبو الفوارس نهشلُ

إنما هو في رجالٍ منهم ؛ قيل له : ما تقول أنت ؟ قال : البيت بيت الله , وزرارة الحجر ؛ قيل له : فمُجاشع ؟ قال : زمزم جشعت بالماء ؛ قيل له : فأبو الفوارس ؟ قال : أبو قبيس ؛ قيل : فنهشل ؟ قال : نهشل أشد , وفكر ساعة ثم قال : نعم , نهشل ! مصباح الكعبة طويل أسود فذاك نهشل ! ((٢٤) .

ولا يخفى على القارئ النسق المضمّر الذي يمكن أن نقرأه خلف سطور هذا الخبر , فقد أراد ابن قتيبة أن يظهر المخالفين له في العقيدة بمظهر الذي لا يفقه شيئاً في تفسير القرآن , كحال مفسر بيت الشعر الذي يفخر بنو تميم به , ؛ وهنا يتحرك النسق المضمّر في سطوة الأنا وفي موقفه الناسخ للآخر , فمن وراء هذا الانتقاص من الآخر / المخالف يتغلغل النسق ليؤدي وظيفته بدرجة كبيرة من المخاتلة والتمويه .

الخبر والإيديولوجيا المقتنعة

عاش ابن قتيبة في القرن الثالث الهجري , وهو قرن كثرت فيه الفرق الدينية وارتقى الصراع بينها إلى المنافرات والمناظرات والمساجلات . ومما لاشك فيه أن رجلاً مثله عدّ لأهل السنة كالجاحظ للمعتزلة(٢٥) , لا يمكن أن يغيب عن ذهنه الانتصار لمذهبه وعقيدة مَنْ يمثلهم , فكان أن وجد في الأخبار معيناً له يرفده بما يعزز العقيدة ويبرز صحتها أمام المخالفين لها .

ويمكن أن نجد في أخبار ابن قتيبة ألواناً من صراع العقائد الذي كان يدور بين المسلمين وبين غير المسلمين , وكذلك بين المسلمين أنفسهم , في السعي لأثبات صواب دعوة كلّ طرف من أطراف النزاع ؛ وبما أن ابن قتيبة لم يكن بمعزل عن هذا الجدل والصراع فقد استثمر هذه الأخبار في ترسيخ اعتقاد جماعته وبيان أفضليتهم وعلو كعبهم على من خالفهم .

يروى ابن قتيبة أنه ((قيل لرجل عند موته : قل لا إله إلا الله , فأعرض , فأعادوا عليه مراراً , فقال : أخبروني عن أبي طالب أقالها عند موته ؟ قالوا , وما أنت وأبو طالب ! قال : لا أُرغب بنفسي عنه))(٢٦) .

يتداخل , في هذا النص , النسق الثقافي مع مصطلح السياق الذي ((يأخذ مفهومين أحدهما ضيق يحدد فيما هو لغوي محض كالمورفيمات والمعجم والتركيب , والثاني واسع يعادل كلّ ما هو خارج لغوي , كالعلاقات الاجتماعية والثقافية والنفسية التي تحيط بإنتاج العمل الأدبي))^(٢٧). وهو أمر يتأكد لنا حين نعلم تعلق السياق بالثقافة فيصبح السياق الثقافي هو ((المحيط الثقافي بمفهومه الواسع للمجتمع اللغوي حيث يختلف المفهوم الذهني للمداخل الأعجمية باختلاف السياقات الثقافية))^(٢٨).

من ذلك , يمكن أن نتلمس المرجعية الثقافية التي غطت على مقصدية المؤلف في ذكره للخبر اعلاه , ذلك أن قضية إسلام أبي طالب وقع فيها جدال كثير بين المسلمين , وكلّ فرقة لها من الأدلة ما يؤيد قولها ويسند حججها , ومعلوم أن المؤلف – بوصفه ممثلاً لطائفته - يذهب إلى الرأي الذي ينكر إسلام أبي طالب , لذلك نلمح جانب السخرية في قول الرجل أنه لا يرغب بنفسه عن أبي طالب ؛ فإذا كان أبو طالب بقيمته المعنوية عند المسلمين مات كافراً فماضير الرجل أن يقتدي به , ذلك أن الرجل ليس من المعقول أن يترك عظماء المسلمين وعلى رأسهم نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين توفاهم الله على الإسلام ويقتدي برجل لم يثبت إسلامه عند فريق كبير من جمهور المسلمين ؛ وهنا يمكن أن يتكشف لنا عبر هذا الخبر نسقاً ثقافياً ينم عن السائد والثابت في عقيدة مؤلفٍ قصد أن يرسخ عند القارئ فكرة قارة في عقيدته ؛ لذلك نجد ابن قتيبة يلجّ على فكرة أنّ أبا طالب مات كافراً , إذ نجده يذكر في موضع آخر من كتابه خبراً يقول إن مدنياً قال لكوفي ((ما بلغ من حبك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : وددت أنّي وقبته ولم يكن وصل إليه يوم أحدٍ ولا غيره شيء من المكروه إلا كان بي دونه . قال المدني : وددت أن أبا طالب كان أسلم فسّر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنّي كافراً))^(٢٩).

هذه الأيديولوجية المغلفة بألوان من السخرية تتكرر في أخبار ابن قتيبة , وهي سخرية يوجهها المؤلف لنصرة الرأي والمذهب الذي يعتقده , وذلك أمر على درجة من الأهمية في كشف الأنساق الثقافية المضمرة التي تتوارى خلف النص الجمالي , ذلك أن الثقافة ينظر إليها ((كأيديولوجية وليس فقط منظومة من الممارسات والسلوكيات والعلاقات أو كسلع ومنسوجات أو مصنوعات مادية))^(٢٩).

فمن الأخبار التي تتوارى فيها الأنساق الثقافية خلف سخرية خاضعة لقصدية مذهبية وأيديولوجية , نقرأ الخبر الذي يرويهِ ابن قتيبة عن الجاحظ , إذ يقول : ((قال (عمر بن بحر) : وسمعت رجلاً يقول : عجبت لمن يأخذهُ النوم وهو يزعم أن الاستطاعة مع الفعل . فقلت : ما الدليل على ذلك ؟ فقال : سبحان الله , الأشعار الصحاح . قلت : مثل ماذا . قال : مثل قول رؤبة :

ما إن يَقَعَنَّ الأرضَ إِلَّا وفقاً

وقوله : يَهُوبِينَ شَتَّى وَيَقَعَنَّ وَفَقَا

وقوله : مِكْرٍ مَقْبَلٍ مَدْبِرٍ مَعَاً

وقولهم في المثل (وقعا كعكمي عير) ثم قال : أليس في هذا مقنع ؟ قلت : بلى , وفي دون هذا ((٣٠)).

في هذا الخبر يلجأ ابن قتيبة إلى الجاحظ الذي يخالفه عقيدةً لكنه – في هذا الخبر – يوافقهُ فكرةً , حين يشير بسخرية واضحة إلى سذاجة وسطحية استدلال أحد علماء الفرق المخالفة , وهذه السخرية يستثمرها المؤلف لبيان الجهل بقواعد الاستدلال في مقام الاحتجاج والجدل , وهو أمر قد يؤكد مظاهر انسراب المواقف الفكرية والآراء المذهبية في ثنايا الرسالة البلاغية التي أراد ابن قتيبة توصيلها إلى القارئ عبر هذا الخبر . وهنا خضع اختيار هذا الخبر من قبل المؤلف إلى موجّهات السياق الثقافي الذي انبثق منه , ذلك أن قضية الجدل والحجاج كان لها أهمية كبيرة في بيان المقدرة العلمية والمعرفة بأصول الدين وفروعه(٣١) , والجدل الديني بين معتنقي الديانات السماوية أو غيرها سمة من سمات حوار الحضارات وصفة من صفات الرقي المعرفي وقبول الآخر, بل هو يأتي في الذروة من بين موضوعات كثيرة يدور بشأنها التمازج والمناظرة , ذلك أن لا شيء حقاً يفرق الأمم شيعاً وفرقاً متنافرة مثل معتقدات بعض الفرق الدينية التي تنحو منحى التطرف والعنف . من هنا يمكن القول إن أكثر المناظرات صعوبة هي ما يتعلق بالدين أو المذهب ؛ ولعل مصطلح (التعصب) , عند إطلاقه دون تقييد لا يذهب إلا للتعصب الديني الضيق , ومع هذا يظل الحوار الديني هو المفتاح الحقيقي , لمعظم المشكلات التي عرفها المسلمون , وعانوا منها في حياتهم . وعليه , فقد تسلح علماء الكلام بالجدل والمناظرة من أجل الدفاع عن الحقيقة الربانية , وتنزيه الذات الإلهية من كل نقص أو عجز أو تجسيد بشري .

لذا , كان من المعيب على من يدعي العلم ويتصدى للجدل والمناظرة أن يخفق في الرد أو الإجابة عما يعترضه من أسئلة , أو يعجز عن دفع حجج الخصوم ويسقط في يديه , وأشد من ذلك - عيباً - أن ينم استدلاله على ضحالة فكره , وفقر أدواته المعرفية في إيجاد الجواب الشافي لما يعترضه من مسائل ؛ وهذا الأمر استثمره ابن قتيبة بمقصدية واضحة عبر خلق موقف سردي يتسم بالطرافة , ويكشف عن حالة من السخرية تنتاب راوي الخبر - الجاحظ - وهو يستمع لهذا الاستدلال المشوّه والمضحك من رجلٍ يعدّ - من سياق الخبر - أنه أحد مراجع الفرق المخالفة , وهذه السخرية وافقت هوى في نفس الراوي الذي له مرجعية عقدية تختلف وتتقاطع مع هذا المرجع .

وهنا نتحسس نسقاً ثقافياً يتحرك تبعاً لأيديولوجية المؤلف الذي أراد أن يوصل مقاصده إلى القارئ من دون أن يستفز مشاعره , فهو يمرر هذه المقاصد متوارياً خلف راوي الخبر (الجاحظ) الذي يذعن ساخراً بعبارته (وفي أدنى من ذلك) , وهي عبارة توهم بالإذعان والتسليم لكنها تخفي ازدياءً لشخصية هذا العالم وسذاجة تفكيره التي قادته لاستدلال صحة معتقده من أبيات شعرٍ لا تمتّ بصلة لما يريد من تأصيل معتقده .

ويستغل ابن قتيبة القدرة البيانية للجاحظ في إثارة السخرية والاستهزاء برموز الفرق المخالفة , ويمكن أن نرصد مثل هذا الأمر في الخبر التالي الذي يرويّه ابن قتيبة عن الجاحظ , قائلاً : ((قال عمرو بن بحر : ذكر لي ذاكر عن شيخ من الإباضية أنه جرى ذكر الشيعة عنده , فأنكر ذلك واشتد غضبه فقلت له : ما انكرت ؟ قال : أنكر مكان الشين في أول الكلمة , لأنني لم أجدها قط إلا في مسخوط عليه , مثل شؤم وشر وشيطان وشح وشعي وشيب وشك وشرك وشتك وشيعة وشطرنج وشاك وشانئ وشحج وشوصة وشابشتي وشكوى . فقلت : ما تقوم بهؤلاء قائمة ابدا))(٣٢) .

يتجسد في هذا الخبر الخطاب الهزلي الذي امتاز به الجاحظ , وهو خطاب يستثمره ابن قتيبة للسخرية من سذاجة أصحاب الفرق المخالفة بوصفهم أشخاصاً لا يمتلكون القدرة على التصدي للخصوم , ولم تتوافر لديهم الشروط المطلوبة لرجل الدين من معرفة بأصول النظر وشروط الرواية لكي يكونوا على مستوى من العلم يمكن أن يؤخذ بمقالاتهم ؛ ومع هذه السخرية من هذا الشيخ الخارجي كان لابن قتيبة فتحاً آخر في روايته لهذا الخبر , ذلك

أنه غمز من طرف خفي لفرقة أخرى مخالفة لعقيدته وأظهرها - بصورة غير مباشرة -
مثاراً للسخرية يمكن لمن خالفها أن يشنع عليها بهذه الأوصاف .

وقد يلجأ ابن قتيبة إلى الأخبار التي تنتقص من شخصيات ورموز الآخر / المخالف وتظهر
له صفة غير محمودة , ومن ذلك خبراً ينقله عن الجاحظ , يقول فيه : ((قال عمرو بن
بحر : قال أبو الهذيل لمحمد بن الجهم وأنا عنده : يا أبا جعفر , أي رجل منخرق الكف
ولا أليق درهما , ويدي هذه صناع في الكسب لكنها في الانفاق خرقاء . كم مائة ألف درهم
قسمتها على الإخوان في مجلس وأبو عثمان يعلم ذلك . أسألك يا أبا عثمان هل تعلم ذلك ؟
قال : يا أبا الهذيل ما أشك فيما تقول . قال : فلم يرض أن حضرت حتى استشهدني , ولم
يرض أن استشهدني حتى استحلطني)) (٣٣).

يتوضح في هذا الخبر الفكرة العامة التي من أجلها جمع ابن قتيبة عيون أخباره , وسلكتها
خيلاً من المقصدية الواضحة في تجريح الخصوم والحط من شأنهم بوسائل عدة .

ومن هذه الوسائل البحث عن صفات غير حميدة فيهم , ولا أدل من البخل صفة تهوي
بصاحبها إلى أدنى المراتب الاجتماعية , فإذا كان الكرم رأس كل فضيلة فإن البخل رأس
كل مثلبة , لذلك صادف لهذا الخبر الذي رواه الجاحظ هوى عن ابن قتيبة ليظهر من خلاله
مثالب المخالف له في العقيدة , وهي مثالب دلّ عليها رجل لا يتهم في عقله ولا في نقله ,
وهو الجاحظ , الذي يحسب على الخط المخالف للمؤلف , ولكنه هنا يصبح علامة قوية
على تأكيد الخبر , ومن ثم تأكيد صفة البخل التي لازمت أحد علماء المعتزلة الذي يحاول
جاهداً أن ينفي عنه هذه التهمة بكلّ ما أوتى من حجة , ناقلاً ما أشتهر به من الجدل
والمناظرة من ميدان العقائد والفكر إلى ميدان آخر , لا يجد له ناصرأ فيه إلا الاستشهاد
براوي الخبر (الجاحظ) .

إن ابن قتيبة يتحرك وفق مرجعية ثقافية محددة , تدفعه للتقليل من شأن مخالفيه والانتقاص
منهم ليدرك القارئ أن مثل هذه النماذج لا تصلح أن تكون مرجعاً للناس في عقائدهم , ولا
يمكن أن تؤخذ مقولاتهم بدرجة تسمح لهم أن يكونوا علماء في هذه الأمة .

ويمكن القول إن ابن قتيبة استعان بالسخرية التي تُقرأ في هذه الأخبار لمقاصد ايديولوجية
وغايات مذهبية , كانت ترافق حالة التسلية والاضحاك التي تثيرها عند المتلقي ؛ بمعنى أن

المؤلف استثمر السخرية في تحقيق ما كان يصبو إليه من تحقير واستهزاء بالمخالفين لعقيدته , ومحاولة صرف نظر القارئ عن مقولاتهم ومعتقداتهم .

الهوامش

- ١- كتاب الحيوان ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث ، ١٩٦٩م : ٩٣/١ .
- ٢- البيان والتبيين : ٨٤/١ .
- ٣- رسائل الجاحظ : ٤٧/٤ .
- ٤- البيان والتبيين : ٣٢/٤ .
- ٥- رسائل الجاحظ : ٣٠/٢ .
- ٦- الخبر في الأدب العربي – دراسة في السردية العربية - ، محمد القاضي ، ط ١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٨م : ٨٥ .
- ٧- كشف اصطلاحات الفنون والعلوم ، التهانوي ، شركة خياط للكتب والنشر ، بيروت ، (د ت) : ٤١٠/٢ .
- ٨- ينظر : قصص العشاق النثرية في العصر الأموي ، عبد الحميد إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، (د ت) : ٨٢ ، والكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري ، حسني ناعسة ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٨م : ١٩٣ .
- ٩- الأدب القصصي عند العرب ، موسى سليمان ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٦م : ٥٣ .

- ١٠- ينظر : علم الأدب ومنزلته بين العلوم في تراثنا , عبد السلام المسدي , مجلة الحياة الثقافية , تونس , ٢٤ , ١٩٩١م : ٦ .
- ١١- ينظر : الكلام والخبر – مقدمة للسرد العربي - , سعيد يقطين , ط ١ , المركز الثقافي العربي , بيروت , ١٩٩٧م : ١٩٥ .
- ١٢- الخبر في السرد العربي , الثوابت والمتغيرات , سعيد جبار , مجموعة المدارس , ٢٠٠٤م : ٢١٨ .
- ١٣- ينظر : الخبر في الأدب العربي : ٤٠٦ .
- ١٤- النقد الثقافي
- ١٥- لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة , أحمد يوسف عبد الفتاح , ط ١ , منشورات الاختلاف , الدار العربية للعلوم , الجزائر , بيروت , ٢٠١٠م : ١٥١ .
- ١٦- المقامات – السرد والأنساق الثقافية - , عبد الفتاح كيليطو , ط ٢ , دار توبقال للنشر , الدار البيضاء , المغرب , ٢٠٠١م : ٨ .
- ١٧- عيون الأخبار , ابن قتيبة , طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية , بيروت , ١٩٢٥م : ٣/١ .
- ١٨- المصدر نفسه : ٧/١ .
- ١٩- المصدر نفسه : ٨/١ .
- ٢٠- ينظر : مناهج التأليف عند العلماء العرب : ١٥٥/١ .
- ٢١- مدار الحكاية – فرضيات القارئ ومسلماته - , علي الشدوي , ط ١ , النادي الأدبي في الرياض والمركز الثقافي العربي , ٢٠٠٨م : ٥ .
- ٢٢- عيون الأخبار : مقدمة المؤلف (ي) .
- ٢٣- المصدر نفسه : ١١/٤ .
- ٢٤- المصدر نفسه : ١٤٦/٤ .
- ٢٥- تاريخ النقد الأدبي عند العرب , عبد العزيز عتيق , ط ٤ , دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت , ١٩٨٦م : ٣٧٢ .
- ٢٦- عيون الأخبار : ٤٩/٤ .

Thi Qar Arts Journal

مجلة آداب ذي قار

P ISSN :2073-6584 | E ISSN:2709-796X

VOL1 NO 43

- ٢٧- السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة , علي أيت أوشان , ط١ , مطبعة النجاح الجديدة , الجزائر , ٢٠٠٠م : ١٦٨ .
- ٢٨- مباحث في اللسانيات , أحمد حساني , ط٢ , المجلس للثقافة والفنون والآداب , الكويت , ١٩٧٩م : ١٥٩ .
- ٢٩- عيون الأخبار : ٢٦٣/٣ .
- ٣٠- التحليل الثقافي , مجموعة باحثين , ترجمة : فاروق أحمد مصطفى وآخرون , الهيئة المصرية العامة للكتب , القاهرة , ٢٠٠٩م : ٩ .
- ٣١- عيون الأخبار : ٢/٢ .
- ٣٢- ينظر : البيان والتبيين : ١١٢/١ .
- ٣٣- عيون الأخبار :
- ٣٤- المصدر نفسه : ١٢٢/٢ .

المصادر والمراجع

- ١- الأدب القصصي عند العرب ، موسى سليمان ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٦م .
- ٢- البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح ، عبد السلام محمد هارون ، ط٥ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٥م .
- ٣- تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، عبد العزيز عتيق ، ط٤ ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت ، ١٩٨٦م .
- ٤- ٢٩- التحليل الثقافي ، مجموعة باحثين ، ترجمة : فاروق أحمد مصطفى وآخرون ، الهيئة المصرية العامة للكتب ، القاهرة ، ٢٠٠٩م .

١٣٧



This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.

- ٥- الخبر في الأدب العربي – دراسة في السردية العربية - , محمد القاضي , ط ١ , دار الغرب الإسلامي ,بيروت , ١٩٩٨ م .
- ٦- الخبر في السرد العربي , الثوابت والمتغيرات , سعيد جبار , مجموعة المدارس , ٢٠٠٤ م .
- ٧- السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة , علي أيت أوشان , ط ١ , مطبعة النجاح الجديدة , الجزائر , ٢٠٠٠ م .
- ٨- عيون الأخبار , ابن قتيبة , طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية , بيروت , ١٩٢٥ م .
- ٩- كتاب الحيوان , الجاحظ , تحقيق : عبد السلام هارون , ط ٢ , مطبعة البابي الحلبي , مصر , ١٩٦٦ م .
- ١٠- رسائل الجاحظ
- ١١- قصص العشاق النثرية في العصر الأموي , عبد الحميد إبراهيم , دار المعارف , القاهرة , (د ت) .
- ١٢- الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري , حسني ناعسة , ط ١ , مؤسسة الرسالة , بيروت , ١٩٧٨ م .
- ١٣- كشف اصطلاحات الفنون والعلوم , التهانوي , شركة خياط للكتب والنشر , بيروت , (د ت) .
- ١٤- الكلام والخبر – مقدمة للسرد العربي - , سعيد يقطين , ط ١ , المركز الثقافي العربي , بيروت , ١٩٩٧ م .
- ١٥- مباحث في اللسانيات , أحمد حساني , ط ٢ , المجلس للثقافة والفنون والآداب , الكويت , ١٩٧٩ م .
- ١٦- مدار الحكاية – فرضيات القارئ ومسلّماته - , علي الشدوي , ط ١ , النادي الأدبي في الرياض والمركز الثقافي العربي , ٢٠٠٨ م .
- ١٧- المقامات – السرد والأنساق الثقافية - , عبد الفتاح كيليطو , ط ٢ , دار توبقال للنشر , الدار البيضاء , المغرب , ٢٠٠١ م .
- ١٨- مناهج التأليف عند العلماء العرب

- ١- علم الأدب ومنزلته بين العلوم في تراثنا , عبد السلام المسدي , مجلة الحياة الثقافية , تونس , ٢٤ , ١٩٩١ م .
- ٢- لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة , أحمد يوسف عبد الفتاح , ط١ , منشورات الاختلاف , الدار العربية للعلوم , الجزائر , بيروت , ٢٠١٠ م .

Sources and references

- 1- The narrative literature among the Arabs, Musa Suleiman, publications of Dar al-Kitab al-Lubnani, 1956 AD.
- 2- The statement and clarification, Abu Othman Amr bin Bahr al-Jahiz, verification and explanation, Abdel Salam Muhammad Haroun, 5th edition, Al-Khanji Library, Cairo, 1985 AD.
- 3- The history of literary criticism among the Arabs, Abdul Aziz Atiq, 4th edition, Dar al-Nahda al-Arabiya for Printing and Publishing - Beirut, 1986 AD.
- 4- Cultural analysis, a group of researchers, translation: Farouk Ahmed Mustafa and others, the Egyptian General Authority for Books, Cairo, 2009 AD.
- 5- The news in Arabic literature - a study in Arabic narrative - Muhammad al-Qadi, 1st edition, Dar al-Gharb al-Islami, Beirut, 1998 AD.
- 6- The news in the Arabic narrative, the constants and variables, Saeed Jabbar, the group of schools, 2004 AD.
- 7- The context and the poetic text from the structure to the reading, Ali Ait Ouchan, 1st edition, Al-Najah Al-Jadida Press, Algeria, 2000 AD.
- 8- Eyes of the news, Ibn Qutaybah, a photographic edition of the edition of Dar al-Kutub al-Masriya, Beirut, 1925 AD.
- 9- The Book of Animals, Al-Jahiz, verification: Abdel Salam Haroun, 2nd edition, Al-Babi Al-Halabi Press, Egypt, 1966 AD.
- 10-Letters of al-Jahiz
- 11-The prose stories of lovers in the Umayyad era, Abdel Hamid Ibrahim, Dar al-Ma'arif, Cairo, (d t).
- 12-The artistic writing in the east of the Islamic state in the third century AH, Husni Nassa, 1st edition, Al-Risala Foundation, Beirut, 1978 AD.



Thi Qar Arts Journal

مجلة آداب ذي قار

P ISSN :2073-6584 | E ISSN:2709-796X

VOL1 NO 43

- 13-Revealing the terms of arts and sciences, Al-Tahanawi, Khayat Company for Books and Publishing, Beirut, (d t).
- 14- Speech and news - an introduction to the Arabic narrative - Saeed Yaqteen, 1st edition, The Arab Cultural Center, Beirut, 1997 AD.
- 15- Topics in linguistics, Ahmed Hassani, 2nd edition, The Council for Culture, Arts and Literature, Kuwait, 1979 AD.
- 16- The orbit of the story - the hypotheses of the reader and his Muslims - Ali al-Shadwi, 1st edition, the Literary Club in Riyadh and the Arab Cultural Center, 2008 AD.
- 17-The stations - the narrative and the cultural patterns - Abdel Fattah Kilito, 2nd edition, Dar Topqal for Publishing, Casablanca, Morocco, 2001 AD.
- 18- Methods of authorship among Arab scholars
Magazines and periodicals 1- The science of literature and its position among the sciences in our heritage, Abdel Salam al-Masdi, Al-Hayat Al-Thaqafiya magazine, Tunisia, 2nd issue, 1991 AD. 2- Linguistics of discourse and cultural patterns, Ahmed Youssef Abdel Fattah, 1st edition, Al-Ikhtilaf Publications, The Arab House of Sciences, Algeria, Beirut, 2010 AD.

مجلة آداب ذي قار



This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.

١٤٥